الباب الخامس

نقد لسيكلوجية أدلر

الفصل الأول

طريقة العرض

يولع المرء بأدلر أول ما يقبل عليه ، فإذا قرأ له كتاباً أتبعه بغيره ، ثم غيره ، تجذبه منه سذاجة الأسلوب ، وطلاوة العرض ، وحسن الحديث واطراده وما يتخلله فى كثير من الأحيان من ذكر لحالات الشذوذ فى كل نواحى الحياة ، ذكراً هو أقرب إلى القصص الخفيف ، منه إلى العرض العلمى الجاد ، مما يحببه إلى الناس ، ويستجيب فيهم لما ألفوه فى هذه الأيام من تزجية الوقت بالقراءة الخفيفة ، وخاصة ما كان يتصل منها بنفوسهم ، وما يوطىء ما يقوله العلم فى تفسير سلوكهم ، وفى عرض ما يصدر عنهم فى حياتهم اليومية من ألوان النشاط وصنوف الخلق .

والحق أن أدلر قد وفق توفيقاً كبيراً ، فى عرض مؤلفاته على جماهير القراء ، عرضاً عاد عليه بذيوع فى الاسم ونشر للمذهب الذى قال به ، ذيوعاً ونشراً ، قد يمكن أن نقول إنه بزّ فيهما فرويد نفسه ، وبخاصة أنه تجنب ما اصطنعه فرويد فى عرض كتبه من جد خالص ، ومن بحث خالص ، ومن فكر طريف يؤيده بالأسانيد ويدعمه بالحجة التى تبين رأيه من مطلع أى كتاب له حتى نهايته مما يتطلب من قرائه توفراً على متابعة الفكرة التى يقول بها ، والتى قد تبدأ منذ أول الفصل فى مؤلفه ، ولا تتم إلا

بعد صفحات وصفحات ، والتى قد تشيع فى الكتاب منذ أول فصل حتى آخر فصل . وذلك أمر عسير كل العسر على جمهرة القوم ، إن استطاعته فئة قليلة من الخاصة لم يطقه كثيرون ممن لم يتخصصوا فى الدراسة ، وعلى الأخص ممن لا يستطيعون أن يخلصوا فيها ، إلا أن تكون المطالعة لهم متعة عابرة ولذة موقوتة ، يأخذون منها بالقسط الذى يمكن أن تهيئه لهم ظروف الحياة المعاصرة وما تتطلبه من جهد وما أثقلت به من تكاليف .

أما أدلر فأنت تستطيع أن تقرأ له كتاباً ، تقرأه من مطلعه أو تقرأه من خاتمته ، تقرأه فى جلسة أو فى جلسات متتابعة ، أو تقرأه اليوم ثم تكمله بعد عام أو تقرأ منه فصلا ، أو تجتزىء منه بفصول ، أو تقرأ له كتاباً قديماً ثم تقرأ له كتاباً حديثاً . وأنت فى كل حال تفهم ما يقول ، فهما يخيل إليك أنه واضح كل الوضوح ، صحيح أقرب ما يكون إلى الصحة ، فهما يسيراً يحبب قوله إلى النفس ، ويقربه إلى متناول العقل والإدراك ، فهما جعل من مذهبه مضغة فى أفواه العامة وبعض الخاصة ؛ ورأياً ينطحك به كتاب الصحف ومن جرى مجراهم يطالعون به الناس فى كل حين ، ويفسرون به كل شكل من أشكال السلوك مهما خفيت أسبابه أو بعدت الغاية منه ، يكفى أن يشيروا إلى أن ذلك ضرب من ضروب التعويض عن لون من ألوان القصور التى تحدث عنها صاحبنا ووطأها لأفهام الناس جميعاً حتى يخيل إليهم أنهم قد فسروا المشكلة واهتدوا إلى حلها الصحيح .

ولكن المرء إذا انتوى الإخلاص فى دراسة أدلر ، فجمع من كتبه أكثر ما تيسر له ، وجمع من مقالاته أكثر ما يمكن أن يصل إليه ، ثم أضاف إليها جانباً مما ألف أتباعه وأصحاب مذهبه . ثم جمع إلى هذا وذاك أكثر ما يستطيع من إعمال فى الفكر ، ومواتاة فى الصبر ، وسماحة فى الطبع ، وفيض فى الحلم ، وتوفر على النظر فيه ، عجب كل العجب لما يؤدى به الأمر أخيراً ، من كشف لما فى أسلوبه من نقائص ولما فى مذهبه من مآخذ ، ولما

فى عرضه من عوج ، ولما فى رأيه من نقص وتهافت .

فتلك كتب كثيرة لها من العناوين ما يجذبها إلى التناول ، وما يدفع المرء إلى الإقبال عليها ، دفعاً لا قبل له به . حسبك أن تطالع الناس بكتاب عن « علم العيش » أو « عن « فهم الطبيعة الإنسانية » أو « عن المزاج العصبى » أو عن « ما يجب أن تفهمه من معنى الحياة »، حتى يسارعوا إلى تناولها كتاباً بعد كتاب قراءة ونقاشاً . لكن المرء إذا قرأها جميعاً ، وإذا جلس بعد هذا إلى نفسه يعد ما فيها من جديد سقط فى يده ، فإذا صابر نفسه وعاود قراءتها جادا أيقن أنه كان يكفيه منها جميعاً كتاب واحد ، أو أنه كان من الخير أن يقسط أدلر فيجمع بينها فى مؤلف واحد أكثر جداً ، وأكثر قصداً فى عرض ما يقول به وما يدعو إليه .

هذا كله إلى ما يلحظه المرء على أسلوبه فى كتبه جميعها ، من إطناب لا بد من وصفه بالطول ، وبما هو أكثر من الطول والإملال فى عرض الفكرة الواحدة فى الموضع بعد الموضع ، ثم العودة إليها بعد أن خيل إليك أنه لم يعد هناك من احتمال للعودة إليها ، ثم العودة إليها مرة أخرى ، أو مرات بعد أن تنفست الصعداء إذ تخلصت منها ، ثم إذا بها تقفز مرة أخرى بألفاظها لفظاً لفظاً ، أو بعبارة ليس فيها من الجدة أو الطلاوة ما يميزها بشىء عن سابقتها .

فإذا التمست فى هذا الإطناب ، بل فى هذا التكرار ما يزيد الفكرة وضوحاً رأيت أن الأمر قد انقلب إلى نقيضه ، وأن الفكرة قد ناهضت الفكرة ، وأن الرأى قد نفى الرأى . وأن أدلر قد التمس ما يؤيد الفكرة فيما يناقضها [١] أو أنه قد أنسى ما كان يقول به فقال بغيره . يعرض له ذلك

(١) يكفى أن نذكر مثلا واحداً لذلك التناقض ، زيادة على ما ذكرناه فى سياق البحث : قال أدلر ص ١٤ من كتابه « فهم الطبيعة الإنسانية » .

"According to our view the strict determinists who consider all human activity as the sequence of cause and effect are not far from wrong."

فى الفصل الواحد أو بين الفصل والفصل بدل المرة الواحدة مرات ومرات .

فإذا جهدت للخلاص مما يؤدى إليه التكرار من إملال ، وصابرت نفسك حتى تستخلص من التناقض الذى تلقاه رأياً تخرج به ، لقيت فى أسلوب أدلر نقيصة أخرى تشيع فيه ، هى كثرة الاستطراد التى تؤدى به إلى ألوان متشعبة من الحديث ، تبعد به بعداً كبيراً عن سير الفكرة ، وتخرج به خروجاً صارخاً عن مجرى الكلام ؛ وإذا به بعد أن كان يتحدث مثلا عن تفسير حلم من الأحلام ، يطنب فى الحديث عن فلسفة « كأن » ، ثم يعود مرة أخرى إلى تفسير الحلم . وإذا كان يتحدث عن ذكريات الطفولة ، انسرب إلى الحديث عن فلسفة « برجسون » فى اتصال الزمن وتواصل الحركة ، حديثاً يصعد إلى آفاق التجريد ونظريات الميتافيزيقا ثم يهبط بك دون نذير إلى علل المثانة أو أشكال الانحراف الجنسى .

نحن إذن أمام ما فى أسلوب أدلر من تكرار وتناقض واستطراد فى حيرة من أمره، نود قبل أن نعرض لمذهبه أن نذلل لتلك النقائص فى أسلوبه . فيخيل لنا إذا تتبعنا تاريخ حياته عن كثب ، أن ثقافته لم تهيئه لدراسة منظمة لعلوم النفس وما تستلزمه تلك الدراسة من مقدمات خاصة فى علوم المنطق والأخلاق والفلسفة الأولى ، وما يكملها من توفر على قراءات الأدب والتاريخ والاجتماع ، فأدى به ذلك النقص إلى ما يتبين عنده من خلط فى حديثه ، خلطاً لم يكن يحتمل أن يقع فيه ، لو أنه أخذ نفسه بدراسة منهجية تنظم

= ثم قال ص ٢٦ من نفس الكتاب :

"Man's soul cannot act as a free agent because the necessity of solving the problems which constantly arise, determines the line of its activity."

وقد عرضنا هذين النصين مرة على أستاذنا لالاند ، فاستغرق منا التوفيق بينهما وقتاً طويلا لم نصل بعده إلى حل ، ثم اتبعه أستاذنا بعد قليل بكتاب ذكر فيه أنه خطر بباله أن قد يكون هناك خطأ فى الترجمة . لكن ذلك الخاطر لم يرجح لأن أدلر كان يجيد اللغة الإنجليزية وكثيراً ما ألف بها ، هذا إلى أنه قد قدم بالذات للطبعة الانجليزية لهذا الكتاب ووافق عليه — كما أن التناقض كثير الشيوع عنده فى مواضع لا تقع تحت حصر .

لديه الحجة وتصقل منه الأساوب. كما يخيل إلينا أن أدلر قد أغفل ذلك كله، لأنه كان يكتب أول الأمر لجماعة من أتباعه راقتهم الفكرة ، وكان غالبهم من الأطباء الذين لا ينعمون النظر فى القول ولا يفحصون فيه أصول الحجة أو أغاليط الاستدلال فقبلوا كتبه الأولى قبولا كبيراً . هذا إلى أن كتبه التى صنفها فى مطلع تأليفه كانت ، إلى قلتها ، تخلو من تلك النقائص أو تكاد لأنه كان حينذاك ينقد فرويد ويعرض رأيه الجديد عرضاً جاداً إلى حد كبير ، يتميز بجانب غير قليل من الوضوح ، ويبرأ إلى حد ما من الغموض الذى لف فيه رأيه بعد ذلك بسنوات؛ حين خيل إليه أنه يستطيع أن يخرج منه مذهباً كاملا ، يفعمه بما يؤيده من المذاهب الأخرى ، ويملأه نقاشاً فى الفلسفة والأخلاق والجمال والاجتماع حتى زاده تعقيداً ، ووقع مغرقاً فى التناقض ، مؤدياً إلى اللبس أداء دعا كثيراً من خاصة المعاصرين[1] إلى الشكوى منه شكاة مرة ، منعتهم سماحة المعرفة أو تجنب العبث بالجهد والوقت من التفكير فى عللها ، أو ردها إلى أصولها .

يخيل إلينا إذن أن صاحبنا أخذ بما وفق إليه أول الأمر من فكرة مبدعة تكمل جانباً من تفسير السلوك الإنسانى ، وتسد نقصاً بان فى المدرسة التحليلية . فود لو استطاع أن يقيم منها مذهباً متكاملا ؛ ثم خشى من نقد الخاصة وعنتهم ، فانقبض عن الكتابة حيناً ، طالع الناس بعده بالكتاب تلو الكتاب ، يعيد فيه الفكرة الأولى ، ويعيدها ، لايزيد عليها شيئاً إلا أن يذكر مذهباً ضخماً من مذاهب الفكر ، أو اسماً جديداً من أسماء الفلاسفة ، يؤيد به رأيه ثم ينكر أنه أخذ منه شيئاً[2]، قائلا : إن هو إلا توافق فى

---

(١) يكفى أن نذكر هنا قول مكدوجل بنصه :

"I find his writings very difficult to comprehend, far more so than those of Freud, In which, however elusive one may find them and however widely one may disagree, one can always discover some coherent thought and some development of fundamental principles..." *Abnormal Psychology*, p. 429.

(٢) يكفى أن نشير إلى موضع واحد يتحدث فيه عن الأوهام فيقول بعد أن أطرى فلسفة كأن إطراء كثيراً : =

الاهتداء إلى ما وصلوا إليه ومصادفة أدت به وبهم إلى التوفيق فى ذلك .

وقد كنا نود أن نسف فى النقد فنقول : إن ما درج عليه الناشرون عند الغربيين من أجر المعروفين من الناس أجراً سخياً على مؤلفاتهم كلمة كلمة ، قد أغرى صاحبنا بنشر الكتابين أو الثلاثة فى العام الواحد ، معادة مكررة لا تكاد تجد فيها طريفاً ، حتى المثل الواحد[1] يتكرر فى الواحد منهما وفى الآخر . . . غير أن وقار البحث لايسمح لنا إلا بالقول بأن أدلر كان يكتب للعامة وكان يتحدث إليهم ، فأصيبت كتبه بما ينبغى أن تصاب به الكتب الموطأة للعامة من تيسير قد يزيد البسيط تعقيداً ويفعم الواضح غموضاً ، والبين التواء ولبساً وعماء .

شاع إلى تلك النقائص كلها ، عوج فى المصطلحات التى اصطنعها فى مذهبه عوجاً قد يعود إلى بعده عن صناعة علوم النفس ، وقد يعود إلى جهله بأصول الاشتقاق وقد يعود إلى أنه ود أن يوطىء ما يقول به ، فخرجت بعض مصطلحاته عما ود أن تعبر عنه ، خروجاً لا شك فيه . وحسبنا أن نذكر هنا ، حديثه عن الاسترجال إذ أطلق عليه عبارة « الاحتجاج المذكر » أو « الاحتجاج الرجلى » على حين كان ينبغى أن يصطنع لأداء المعنى الذى أراده أن يقول « الاحتجاج على الرجل » أو « الهرب من الأنوثة » .

= "J'ai été le premier à attirer l'attention sur ce double aspect de la fiction, pour ce qui concerne la psychologie des névroses, et le travail de Vaihinger n'a fait que m'encourager dans cette voie et raffirmer ma manière de voir". *Tempérament Nerveux*, p. 83.

أو بقوله فى موضع آخر

"I became acquainted with his ideas long after I had arrived at the hypothesis of safety-tendencies and arrangements." *Individual Psychology*, p. 126.

(١) لعلنا قرأنا حديث أدلر عن حلم سيمونيدس ، الذى ذكرناه ، فى أربعة من كتبه على الأقل .

الفصل الثانى

أدلر والمنهج العلمى

فإذا تركنا الأسلوب جانباً ونظرنا إلى مذهبه رأينا أنه ليس له من منهجه ولا موضوعه ما يخوله الحق فى أن يطلق عليه اسم العلم فى شىء .

لأنه إذا كان العلم ثمرة لجهد منهجى ، يقوم به العقل لكشف العلل والاهتداء إلى القوانين التى تضبط حدوث أمر ما ، أو مجموعة متجانسة من الأمور ، ووضع تلك القوانين فى « نظام » خاص .

وإذا كان من سمات المعرفة العلمية ، استنباط البسيط من المركب ، والعام من الخاص ، والضرورى من الممكن ، هذا إلى أنها واضحة معقولة غير شخصية يمكن تحقيقها وإثباتها وتعليمها . وإذا كان العلم معرفة موضوعية ، لا تفسدها شوائب النظر الفردى أو النظر العارض ، كمعرفة إحدى نظريات الهندسة أو أحد قوانين العلم الطبيعى .

وإذا كان من مميزات العقلية العلمية أن تتحرر فى نظرها إلى الأمور من الاعتماد على الثقات ، وألا تقوم إلا على الفحص الحر ، والاستقلال فى النظر ، لا يهديها فى ذلك سوى الحجة العقلية الواضحة التى تؤدى إليها الملاحظة أو التجربة ، وأن تنظر فى الأمور نظراً عينياً فلا تلتمس علل الأشياء فى قوى غيبية أو خارقة للطبيعة ، بل تحاول أن ترجع كل أمر إلى ما يمكن تحققه فى الواقع . وأن تصطنع النقد ، بل تمهر فى اصطناعه إزاء ما يقول به العقل من أفكار وفروض ونظريات . حتى لا تقرب اليقين إلا فى حذر وشك .

وإذا كان للعقلية العلمية إلى جانب ما تتميز به من قوة ودقة وعمق ولطف ، صفات خلقية لازمة ، أهمها حب الحق ، والإخلاص العلمى .

إذا كان ذلك بعض مايميز العلم والنظر العلمى[1]، فلنر إلى سيكلوجية أدلر ومقدار ما فيها من هذه الصفات .

أول ما يقابلنا أدلر به هو تجريح حاد لمذهب فرويد ، لاستمساكه بعلة واحدة يفسر على ضوئها ، كل ما يصدر عن الإنسان من ضروب النشاط ، وما يصيب نفسه من أشكال العوج والعلة ، ورد قوى على أن الغريزة الجنسية ليست المصدر الذى ينبع منه النشاط الإنسانى ، وأن الطاقة التى تبعث إلى العمل ليست الجوع الجنسى على أى حال من الأحوال .

وإذا به هو يستعير قانوناً من قوانين علم الحياة ، هو قدرة الكائن الحى على رد التوازن إلى وظائف أعضائه : إذا قصر عضو منها فى أداء وظيفته قام عضو آخر بتعويض ذلك القصور ، وبالإبقاء على حياة الكائن الحى ونشاطه ، بفضل هذا التعويض .

استعار أدلر تلك الحقيقة من علم الحياة ، وربط بين قصور أحد الأعضاء وبين ما يؤدى إليه من زيادة فى نشاط الأعصاب التى تتصل به ، وأخرج من ذلك قانوناً عاماً يفسر هو على ضوئه كل ألوان النشاط النفسى التى يقوم بها الإنسان .

فبدأ مذهبه على هذا المنوال ، بفكرة سابقة ، لم يتخذ موقف الشك للتحقق منها : ينتظر ما يؤدى إليه البحث نفياً أو إثباتاً لها ، بل آمن بها إيماناً لا يحيد عنه واتخذها نبراسه الوحيد فى كل ما قال به فى سيكلوجيته ، وتلك أول نقيصة فى مذهبه من الناحية العلمية . تقول بها أصول الاستقراء

---

(١) Lalande : *Lectures sur la Philosophie des Sciences,* Ch. I.
Goblot : *Traité de Logique,* Ch. XVIII.
Cuvillier : *Manuel de Philosophie : Logique,* Ch. II.
Rabier : *Logique,* Ch. VII.

وبدائه الفهم العام . ذلك لأن من أشكال التفكير التى تؤدى إلى الوقوع فى الخطأ أن نظن أنه لا يمكن أن يكون للظاهرة الواحدة سوى علة واحدة تؤدى إلى حدوثها[١]، فما بالنا بظاهرات النفس على تنوعها وتعددها ، وبالإيمان بأنها جميعاً ترتد إلى علة مفردة واحدة .

فلو قلنا إن أدلر ، وضع فكرة القصور على سبيل الفرض فحسب ، رأينا أنه لم يصطنع ، كما يخيل إلينا ، أصول البحث العلمى فى عدم القول بصحة الفرض إلا بعد القيام بكل ما يمكن عمله من ملاحظات وتجارب . فإذا قيل إن القيام بالتجارب فى الميدان الذى اشتغل به عسير ، لأن كثيراً من مظاهر السلوك الإنسانى تمتنع على التجريب — مع أن بعض القوم قد اصطنعوا التجربة فى دراسة كثير من مظاهر النفس العويصة مثل الانفعال أو الذكاء — رأينا أن الملاحظة التى قام بها لإثبات الفرض الذى قال به غير كفيلة بتحقيقه . لأنه إذا كان من شروط الملاحظة العلمية أن يعددها المرء ما استطاع ، وأن ينوع فيها ما وسعه التنويع ، وأن يستقصى من الحالات التى تقع فيها الظاهرة أكثر ما يمكن أن يوفق إليه من استقصاء[٢] فإن دراسة حياة أدلر ومؤلفاته تعطينا الحجة على أنه لم يوفق إلى أى جانب ، يرجح قيامه بالملاحظة العلمية الصحيحة ، ذلك لأن أدلر بقى أمداً طويلا يعمل طبيباً يأسو علل العين ، ثم طبيباً يعالج البدن عامة ، ولم يتجه نحو دراسة الأمور النفسية إلا فى مطلع هذا القرن حين سمع عن فرويد فالتحق بجماعته عام ١٩٠٩ — وانفصل عنه عام ١٩١١ . فإذا قلنا إنه مارس علاج النفس منذ ذلك الحين ، وأن الحالات التى قام بدراستها هيأت له ما أثبت رأيه فى القصور ، سقط ذلك القول ، لأنه نشر رأيه عن نظرية القصور العضوى والتعويض النفسى عام ١٩٠٧ . أى أنه أقام فرضه قانوناً ، قبل أن

---

(١) Mill : *A System of Logic*, B.5, Ch. IV, pp. 500-501.

(٢) والحديث عن « صيد بان » الذى قال به باكون يطول .

يهيئه عمله لتحقيقه تحقيقاً علمياً . مما يؤيد ما قلناه ، من قبل ، من أنه بدأ بحثه بفكرة سابقة .

بل نستطيع أن نقول — دون أن يكون فى هذا القول ترجيح منا لمذهب فرويد — إن أدلر قد انفصل[١] عن فرويد قبل أن ينضم إليه ، أوأنه على الأقل قد نقد مذهب فرويد قبل أن يتوفر على دراسته ، وقبل أن يتعرف ، عن كثب ، على نظريته وتطبيقها أى أنه أقام نقده بفكرة سابقة ، فوقع فى الخطأ الذى عابه هو على فرويد . ويبدو لنا أن القوم قد أغفلوا عن تجريح نظرية أدلر فى مطلعها ، ولم يدركوا ما فيها من نقص وتهافت ، لأنهم رأوا فيما يقول به ، ما يوافق تيار الإنكار الشديد ، والنقد الجارح الذى قوبلت به آراء المدرسة التحليلية فى ذلك الحين[٢].

فإذا تركنا هذه الحجة التاريخية جانباً ، رأينا أن الكثرة المطلقة للحالات التى يذكرها أدلر حالات شاذة ؛ ذلك لأنه من الطبيعى أن عمله فى علاج الأمراض النفسية هو الذى كان مصدراً يستقى منه ما يثبت به الفرض أو الرأى الذى قال به ومع أن أصحاب السيكلوجية المرضية يزعمون أن قوانين الحالات المرضية هى بعينها قوانين الحالات الصحيحة منذ أن قال بهذا المبدأ بروسيه (١٨٢٨) ويقيمون ذلك المبدأ على أن الاضطرابات المرضية ، حتى فى أكثر أشكالها تطرفاً ليست سوى إسراف أو نقص أو انحراف للوظائف السوية للنفس، مع أن ذلك هو المبدأ الذى تقول به السيكلوجية المرضية — وليس من شك أن لها فضلا كبيراً على تقدم علوم النفس —

---

(١) ينكر بعض أتباع أدلر أنه تتلمذ على فرويد ، أو تبعه على أى شكل من الأشكال إلا أن يكون قد عاونه فى العمل ردحاً من الزمن (من خلاصة لكتاب :
Sperber : Adler der Mensch und seine Lehre (Psych. Abstracts, 1930).
ولعل فى ذلك ما يؤيد الفكرة التى نقول بها .

(٢) نذكر أن من طريف ما قرأناه منذ سنوات طوال ، مقالا كتبه فرويد فى المجلد العشرين أو الحادى والعشرين من كتاب Historian's History of the World يجأر فيه بالشكوى من عقوق تلاميذه ، عقوقاً يرجع فى الغالب — كما قال — إلى استغلاق مذهبه على أفهامهم .

إلا أنه لا يمكن التسليم به دون نقاش . ذلك لأنه من العجب أن تؤخذ قوانين المرض قوانين للصحة . فإذا ثبت صحة قوانين المرض عن طريق الملاحظة والتجريب كان لا بد من قبل أن نكون قد كونا فكرة عن معنى الصحة والاستواء حتى نفرق بينها وبين حالات المرض والشذوذ ، غير أن الأمر لم يعتمد فى الواقع إلا على المعرفة التى قامت على الفهم العام وعلى متعارف الأوضاع المألوفة ، مع أنه ينبغى أن ندرس الإنسان السوى قبل أن نحكم على غيره بالشذوذ . بل لقد قال بلوندل — غير ذلك — أن هناك فرقاً أساسياً بين النفس السوية والنفس الشاذة ، ولم ير فى ذلك نفياً لمبدأ التواصل بين السوى والشاذ .

بل إنا إذا سلمنا بحجة أصحاب السيكلوجية المرضية لم نجد من أدلر أو أتباعه فى دراستهم لحالات الشذوذ ، ما ينبغى أن يتبعه العلم من تفسير للكيف على ضوء الكم ، ومن إقامة الرأى على الاستقصاء والإحصاء ، بل نلقى أنهم أنفسهم قد اعترفوا أن الإحصاء حتى من الناحية العلاجية قد استعصى عليهم ، فلم يستطيعوا أن يؤيدوا رأيهم ، بتعداد الحالات التى انطبق عليها ونجح علاجهم فيها ، ذلك لأن مرضاهم كانوا يولون الفرار قبل أن يتم شفاؤهم تماماً (١) — فكأن ليس هناك ما يؤيد مذهبهم تأييداً يعتمد على ما يقول به أصول المنهج العلمى . وكأن ليس لهم ما يستطيعون أن يردوا به على ما أخذوه هم أنفسهم على المدرسة التحليلية ، من قبل ، من وقوعها فى الخطأ تبعاً للتعميم السريع ، إذا واجهناهم نحن بارتكاب عين الخطأ .

بل إنا سلمنا بنجاح مذهب أدلر فى العلاج ، وبأن ذلك النجاح دليل على صحة ما قال به ، لم نجد نقداً يوجه إلى هذه الحجة خيراً من نفى بلوندل للقول بصحة التحليل النفسى لأنه أدى إلى شفاء المرضى الذين عولجوا

(١) انظر الفصل الخاص بالعلاج النفسى ص ١٨٥ .

به ، قال « إننى لا أومن مطلقاً بهذا البرهان ، فقد وفقت كما وفق زملائى جميعاً إلى القيام ببعض المعجزات التى تؤيد رأيى . فقد أعدت النطق إلى الأبكم ، والسمع إلى الأصم ، والبصر إلى الضرير ، والحركة إلى الأشل . غير أنى إذا كنت قد استطعت أن أعالج الأعراض ، فإننى موقن أننى لم أغير بذلك البتة فى الحالة العقلية الكامنة لكل منهم . لأننى أنكر إمكان تحويل الخصائص الخلقية إنكارى لتحويل المعادن بعضها إلى بعض »(١) ذلك لأن خصائص الأمراض النفسية أن تختفى أعراضها بينا يبقى أساس المرض ثابتاً مخبوءاً فى النفس .

فإذا تركنا النظر إلى السيكلوجية الفردية من الناحية المنهجية ، ونظرنا إليها من حيث الموضوع رأينا أن أصحابنا – بينا هم يدعون أنهم أقاموا « سيكلوجية » شاملة – قررون أن الناس جميعاً لا سوى فيهم ، إذ كل منا ، كما يقررون ، شاذ إلى حد ما . وليس من جدوى فى سكلوجيتهم – كما يقولون – إلا أن تخفف قليلا أو كثيراً من هذا الشذوذ . ذلك لأن أحداً لا يستطيع أن يصل إلى المثل الذى ينبغى أن يكون عليه الإنسان . وهكذا انسرب أصحابنا إلى ترديد ماقال به أفلاطون ، من قبل ، من أن الأمور التى توجد فى هذا العالم المحسوس ليست سوى أشباح توجد مُثُلها فى عالم آخر غير هذا العالم . وهكذا نرى فى مذهب أصحابنا ردة واضحة إلى نظرية المثل الأفلاطونية ، التى لم نعرف أن علماً من العلوم قال بها فقرر أن موضوعه لا يوجد هنا ، بل يوجد فى عالم آخر .

(١) Blondel : *La Psychanalyse*, p. 133.

الفصل الثالث

أدلر والفلسفة

إذا تهافتت سيكلوجية أدلر كعلم، تبين من الناحية الأخرى أنها أشربت نظراً فلسفياً ، شاع فى كتب أصحابها هنا وهناك . لكننا إذا حاولنا أن نقيم منها مذهباً فلسفياً ، استعصى ذلك علينا أول الأمر لأن أدلر لم يتبع مذهباً صريحاً بعينه ، ولم ينشئ مذهباً جديداً ، بل انتقى شتاتاً من الآراء الفلسفية ، لا نستطيع أن نكون منه وحدة متناسقة إلا بجانب غير قليل من العسر . هذا إلى أنا لو أردنا أن نستخلص الجوانب الفلسفية فى مذهبه ، للقينا عنتاً شديداً ، لأنه — فى كثير من الأحايين — قد عرض لهذه الجوانب عرضاً عامياً يبعد به عن أصول النظر الفلسفى الجاد .

ومع أنا قد أسلفنا الإشارة إلى أكثر ما فى مذهبه من ألوان الفلسفة ، فسوف نحاول هنا أن نلخص التيارات التى تبعها .

يدعو أدلر إلى منهج يعتمد على الحدس . ويقرب فيه قرباً شديداً ، مما دعا إليه برجسون ، حين قال : إن واجب الفليسوف ، هو أن يخلف جانباً الأشكال المألوفة للتفكير التحليلى ، الذى تلويه اللغة ، وأن يتوفر على القيام بجهد حدسى يصله بالحقيقة ، وصلا مباشراً لا وساطة فيه . ذلك لأن برجسون يرى أن هناك أسلوبين من المعرفة ، يلجأ الأول منهما إلى الدوران حول الأمر ، أما الثانى فيخترق شغافه — يعتمد الأول على وجهة النظر التى يتخذها المرء وعلى الرموز التى يعبر بها عن نفسه ، أما الثانى فلا يتخذ أية وجهة للنظر ، ولا يعتمد على أى رمز . حتى ليمكن

أن يقال : إن الأسلوب الأول من المعرفة ، يقف عند حد المضاف ، أما الثانى فإنه يصل — إذا تحقق — إلى المطلق .

ويقول برجسون : إن هذين اللونين من المعرفة ، يتصلان بالسبيلين اللذين اتخذهما النشاط النفسى فى تطوره وهما : الذكاء والغريزة . إذ يرى أن الذكاء ليس ملكة وظيفتها التأمل الخالص ، بل هى ملكة تتصل بضرورات العمل ، والعمل بأضيق معانيه . ذلك لأن الإنسان ، بطبعه ، لا يفكر إلا لكى يعمل[١] . لهذا لم يكن الذكاء أكثر ما فينا من أمور ذاتية خاصة ، بل هو جماع ما تأثرت به الإنسانية كلها ، وليس ذلك الذكاء سوى « أنا » سطحياً ، يستجيب لمطالب الحياة الجمعية بصفة عامة ، ولأصول اللغة بصفة خاصة ، ذلك لأن اللغة لا تختزن سوى الثابت والعام ، أى كل ما هو غير شخصى فى مشاعر الناس[٢] .

لهذا كان الذكاء ، بطبعه ، يقصر عن إدراك الحياة ، لأنه إذا كان قد قام للعمل ، أى لتوثيق الصلة بيننا وبين عالم المادة ، والجامدة منها على الأخص ، فإنه لا يستطيع أن يدرك سوى ما يشبهها أى الساكن والمتقطع . فكان لهذا ، فى صميمه ، ملكة للتحليل ، يقطع أوصال الحقيقة والحياة الملموسة إلى رموز جزئية وعناصر ثابتة فى معان كونت على صور الجماد . ذلك الذكاء يجزىء المتواصل ، ويحكم على المتحرك بالسكون . وهو من ناحية أخرى ، لا يمسك من كل الأحاسيس الدقيقة العابرة ، التى تهفو على شعور الفرد ، إلا بما هو عام مشاع بين عقول الناس جميعاً ، مفلتا فى ذلك كل ما يصل إليه الفرد من إبداع وكل ما فى خبرته من كيف جديد ، لأنه لا يستطيع أن يشرح أمراً إلا بإرجاعه إلى ما عرف من قبل ، أى أن يعبر عنه بأمر يخالفه تماماً .

(١) Bergson : *Evolution Créatrice*, p. 321.

(٢) Bergson : *Données Immédiates de la Conscience*, pp. 97-108.

أما الغريزة فقد صبت على قالب الحياة بل فى صميمه . فإذا كان الذكاء يعالج الأمور علاجاً آلياً فإن الغريزة تقوم بذلك قياماً عضوياً ، تكمل به عمل الحياة فى تنظيم المادة . فالغريزة « تعاطف » وهى « حدس »(١) تدرك الحياة من صميم الحياة وأعماقها . وليس من شك فى أن الحيوان يعيش ذلك الحدس أكثر من إدراكه له . لكن ذلك التعاطف إذا استطاع أن يمتد ، وإذا استطاعت الغريزة أن تتجنب النفع ، وتبعد عن الهوى ، وأن تشعر بنفسها ، وأن تتأمل موضوعها ، وتوفق فى توسيع نطاقها ، فإنها تستطيع بذلك أن تصل بنا إلى كنه الحياة وسرها . وليس ذلك بعسير على الإنسان لأنه إذا كان الفنان قد استطاع بذلك التعاطف الجمالى اللطيف أن يعيش موضوع فنه ، وأن يبدع فى التعبير عنه فقد يصل الفيلسوف إلى الحقيقة لو أنه تجنب عادات التفكير وولى ظهره للعلم وتخطى حدود المنطق وأساليب الجدل إلى آفاق الحدس . أى إلى ذلك اللون من التعاطف العقلى الذى يستطيع المرء أن ينفذ به إلى شغاف الشىء حتى يندمج مع ما فيه من وحدة يعسر التعبير عنها لكونها كذلك(٢) .

ولسنا نود الآن أن نعرض لنقد برجسون ، غير أنا نود أن نشير إلى ما فى قوله من قرب للمذهب العملى(٣) ومن نقد للغة والرموز ، ومن لون صوفى ، يبدو لنا أن أدلر بدأ مذهبه به : فدعا إلى معرفة النفس ، عن طريق الحدس ، بل عن طريق « التقمص الوجدانى »(٤) ودعا من يود دراسة امرىء ما ، أن يستشعر انفعالاته وعواطفه وأن ينظر إلى الدنيا وأوضاعها بعينه ، بل لو أذنت لنا اللغة لقلنا إن يحياه ويعيشه . ولا يمكن أن يكون ذلك

---

(١) Sympathie et Intuition.

(٢) Bergson : Introduction. à la Métaphysique p. 3

(٣) Pragmatism.

(٤) فى الانجليزية Empathy عن الألمانية Einfuhlung

إلا عن طريق الإدراك المباشر أو الحدس[١] الذى قال به برجسون .

ولقد قرب أدلر أيضاً مما قاله برجسون : من أن الفهم العام فى صميمه مصيب؛ وإن يكن فى شكله مريب[٢] تبعاً لما يلصق به من ضرورات العمل والتطبيق؛ حتى لقد سأله أحد أساطين الطب مرة عن علة اتخاذه (أدلر) اسم عالم بالنفس ، على حين أنه لا يقول إلا ما يقتضيه الفهم العام فأفحمه أدلر بقوله : ولم لا تقوم أنت أيضاً بذلك[٣] .

هذا الأثر الواضح لفلسفة برجسون ، دفع بأدلر إلى الترحيب بفلسفة فايهجر أو على الأقل إلى الاهتداء إلى ما اهتدى إليه هذا من قول : بأن الفكر كان فى أصل نشأته أداة فقط ، استخدمها الإنسان فى ميدان تنازع البقاء ، ثم أصبح غاية فى نفسه ، وأنه عاجز عن معرفة الحقيقة لأن كل الأفكار التى تصدر عنه ، ليست سوى ألوان من الأساطير والأوهام ، يتخذها المرء وسيلة لحل مشاكل الحياة ، وعوناً له على النشاط والعمل[٤] .

ويمكن أن يضاف إلى هذا أثر واضح أيضاً من المثالية الألمانية[٥] أوعلى التحديد من طريقة الجدل[٦] التى قال بها «هيجل» مكملا بها طريقة

---

(١) يقول أدلر ص ٨ من كتابه « فهم الطبيعة الإنسانية » .

"We must identify ourselves with every manifestation of the soul life, live ourselves into it, accompany human beings through their joys and their sorrows, in much the same way that a good painter paints into a portrait those characteristics which he has felt in the person of his subject."

وفى ص ٦٠ من نفس الكتاب :

"Empathy occurs in the moment one human being speaks with another. It is impossible to understand another individual if it is imposible at the same time to identify oneself with him."

وتحدث عن ذلك أيضاً ص ١٣ و ٦٠ – ٦٣ من الكتاب المذكور .

(٢) Le Roy : *Une Philosophie Nouvelle*, p. 16.

(٣) Adler : *The Case of Mrs A*, p. 12.

(٤) نرجو النظر إلى هامش ص ٩١ .

(٥) نرجو النظر إلى ص ١٠٤ .

(٦) La Méthode Dialectique

النقض[١] التى قال بها «فيخته» . إذ رأى هيجل أن الفكر يستطيع أن يقيم وحدة بين الأمور التى تبدو متناقضة فى الحياة العادية وأن يجمع بين الأجزاء — التى تبدو متفرقة منفصلة لأول وهلة — فى مجموعة واحدة تنسجم فيها العناصر وتتحد المتناقضات .

بل لعل أثر هيجل على أدلر ، قد كان أبعد من أثر المدرسة الاجتماعية عليه فى ناحية معايير القيم ، فلعل أدلر قد أعجب معه[٢] بالشعوب والعصور التى انغمر فيها الناس بين ثنايا الآراء العامة الكبيرة ، التى كانت تكشف لهم عن سر الوجود . يوم كان الفرد من الإغريق أو النصارى ، لا يستشعر لنفسه كياناً منفصلا ، نابياً عن الجماعة ، ولا ينشز عن الاجتماع محتجاً برأيه الخاص ، بل يستوحى من العاطفة العامة رأيه . ومن كيان الجماعة عاطفته يفنى فيها ويستمد أنفاسه منها .

يبدو لنا بياناً واضحاً قوياً ، أن ذلك هو عماد فكرة أدلر ، التى حاول أن يقيم منها مذهباً يفسر على ضوئه النشاط الإنسانى بأجمعه ، بعد أن أضاف إليها كثيراً من الأفكار الفلسفية الأخرى التى تتوافق وإياها . كما يبدو لنا أن كل من كتبوا عن أدلر أو تحدثوا عنه قد أخطأوا خطأً كبيراً فى رد مذهبه إلى فلسفة القوة التى نادى بها « نيتشه » .

لأنه إذا كان نيتشه قد أراد أن يهدم الأخلاق القديمة ، حتى يستبدل العزة بالذلة ، والعنف باللين ، والإبداع بالتقليد أو الإنسان الأعلى بالإنسان السوى ، وأن يقيم الدنيا كلها على إرادة القوة ، التى ينبغى أن تطغى على كل شىء وتتحكم فى كل شىء فإنه من الجلى الواضح — لو توفر المرء على تفهم أدلر ووفق فى ذلك أن صاحبنا لم يتبع نيتشه فى شىء .

---

(١) يقول فيخته إن الذات تمر بخطوات ثلاث حتى تدرك نفسها . وهى التقرير Thèse والنقض Antithèse ثم التركيب Synthèse

(٢) Hoffding : *Histoire de la Philosophie Moderne*, T. 2, p. 177.

ذلك لأن أدلر إذا كان قد ذكر « إرادة القوة » فى كثير من المواضع ، ومثل بأقوال نيتشه فى أكثر منها ، ثم ردها إلى الميل للتعويض ، فإنه لم يذكر ذلك على أنه يمت إلى الحقيقة بسبب ، بل قال إن كل أشكال القوة التى يشخص نحوها المرء ، ليست سوى أوهام[١] يقيمها الفكر ، حتى يخلص المرء بذلك من حدة الشعور بالضعة والضعف التى تفسد عليه ذوقه للحياة السوية المستقيمة . أى أن أدلر لم ير فى الدعوة إلى القوة[٢] — على أكثر أشكالها عنفاً وتطرفاً وشدة — إلا ميلا شاذاً يلجأ إليه من يخرجون عن سبيل الحياة المتعارف المألوف .

بل إن هناك بوناً شاسعاً بين المعايير التى قال بها نيتشه ، وتطرف فى الدعوة إليها وبين المعايير التى نادى بها أدلر وغايات الحياة التى ألح فى القول بها لأنه لا يمكن أن تتسق فلسفة القوة مع روح التعاون والمساواة التى قال بها أدلر ومع الهدف الذى حدده لمذهبه ، وهو تأييد كل الحركات التى تدعو إلى تقوية الروح الاجتماعية فى الأفراد ، ومناهضة كل الآراء التى تدعو إلى التعصب للأسرة أو الأمة أو الجنس[٣] .

نود أن نؤكد إذن : أن النظر الفلسفى يطغى على ما فى مذهب أدلر

---

(١) نرجو النظر إلى ص ٧٦ — ٧٨ .

(٢) لعل أدلر قد أدرك وهو طبيب أن نيتشه قد وضع كتابه « هكذا قال زرادشت » فى المدة من مايو ١٨٨٣ — فبراير ١٨٨٥ . أى خلال الفترة التى يؤدى فيها الزهرى إلى « الشلل العام للجنون » (Paresis) وما يتبعه من خلل فى العقل ، بعض مظاهره أوهام العظمة . نرجو النظر إلى :

P. Price : *The practice of Medicine*, pp. 1586-1590.
Dawson : *Aids to Psychiatry*, pp. 172-187.
Lichtenberger : *La philosophie de Nietsche*, pp. 81-86.

ولو أن المؤلف الأخير عرف أن الأطباء لم يكشفوا سر ذلك الضرب من الجنون إلا عندما اهتدى نوجوشى عام ١٩١٣ إلى التثبت من وجود جرثومة فى المخ لما حاول أن يدافع عن اتزان نيتشه العقلى فى تلك المدة لأن أدلة دفاعه كلها تقوم أعراضاً تثبت الرأى الذى نقول به .

(٣) عن خلاصة مقال لأدلر فى Psych. Abstracts 1934, 4622.

من علم . ولسنا بقولنا هذا نتحيف عليه ، فقد سلم هو به [١] لكنا نزيد على ذلك : أن الفلسفة فى مذهبه تعوزها الوحدة وينقصها التنظيم . ورغم هذا فنحن لا نود أن نتحيف على صاحب علم النفس الفردى أو أن نعسف به . فالحق أن فى مذهبه لشيئاً كثيراً من الحكمة ، لو أنه كان قد وفق إلى إحسان عرضه . لكن هذا الضرب من التفكير لا يمكن أن يقوم علما ، فللعلم أصوله وطرائق تقرير حقائقه كما أسلفنا ؛ ولا يمكن أن يقوم مذهباً فلسفياً أصيلا ، لأن كثيراً من مقدماته قد تواترت فى تفكير غيره من قبل . ومهما يكن من أمر فإن مذهبه لون من الحكمة العملية التى قد تجدى فى إرشاد كثير من الناس وتوجيه سلوكهم .

---

(١) عن خلاصة مقال لأدلر فى Ibid, 1932, 4808